الشكوى في الشعر الجاهلي

قحطان رشيد التميمي
قسم اللغة العربية

- ١ -

الشكوى وليدة الحرمان والظلم الاجتماعي والسياسي وانعدام حياة العدل والمساواة والشعور بالحيف وعدم الوفاء ، وهي بعد ذلك صرخة العواطف المحرومة الخائبة ومظهر للاضطراب النفسي والتشاؤم الذاتي .

ولا شك في أن الشكوى حاجة نفسية ملحة في كثير من الاوقات ، فعن طريقها يتخفف المرء من أثقال همومه ودفين آلامه بما يطلقه من صيحات التشكي وصرخات التظلم ، وهي أخيرا دلالة واضحة على أنّ الانسان لم يعد في طاقة نفسه أن تتحمل اكثر مما تحملت وأن تتجمل ابعد مما تجملت .

وقد نظر البعض الى الشكوى على أنها علامة ضعف وقلة حزم ، فلم يكونوا ليحمدوا طول الشكوى وكثرتها وانما وجدوا في الصبر بديلا حميدا عنها ، ولذلك نجد الشاعر الجاهلي – دريد بن الصمة – يفتخر بصبره وقلة تشكيه فيقول [١] :

قليلُ التشكي للمصيبات حافظٌ من اليوم أعقاب الاحاديث في غدِ

ويقول آخر [٢] :

وما كثرة الشكوى بأمر حزامةٍ ولابد من شكوى اذا لم يكن صبر

على أن البعض الآخر قد تطرفوا كثيرا حين نظروا الى الصبر نفسه على أنه منقصة في المرء وذلة في نفسه ، كما في قول ذي الاصبع العداوني [٣]:

ولايُرى فيّ غير الصبر منقصة وما سواه فان الله يكفيني

وقول محمد بن وهيب الحميرى (٤) :

ألا ربما كان التصبّر ذلةً وأدنى الى الحال التي هي أسمج

واذا كنا نرى فى الشكوى تلبية لداعى النفس المحرومة المظلومة وأن الانسان يكشف عن طريقها عما يعانيه من آلام وأحزان ومكابدة ، فاننا نتفق مع من يعدّونها ذلة ومنقصة وعجزاً حين نجد صبر من يتصابر ضعفاً ، وشكاة من يتشكى استكانة ، فكثيرون هم أولئك المستضعفون الذين يلوذون بصبر غير جميل ويستغيثون بغير مغيث فيخشعون ويخضعون .

ولا ننكر هنا أن الانسان قد يجد نفسه أحيانا فى وضع ليس له فيه الا أن يشكو ويتظلم ، ولكننا نأبى عليه أن يظل شاكيا متظلما لان التمرد على الظلم والظالمين وانتزاع الحق بالحزم والقوة هو الطريق السليم المشرف لكل المستضعفين المظلومين على نطاق الفرد والشعوب .

- ٢ -

والشاعر - كما أصبح معروفا - ابن بيئته ومرآة عصره ينعكس فى شعره هذا العصر وهذه البيئة بكل ما فيهما من ظروف سياسية واحوال اجتماعية واقتصادية متناقضة متباينة . واذ كان الشاعر أرق الناس شعوراً وأرهفهم حسّاً واشدهم انفعالا بمحيطه ، فانه قد عبّر بفنه الجميل عما يعانيه هو والآخرون من ضروب الآلام والحاجة والظلم . والشاعر الجاهلى حين عبّر عن عواطفه فتغنى بآماله وأحلامه وفاخر بنفسه وقبيلته ومدح وهجا ووصف ورثى ، فانه قد تظلم حينما شعر بالظلم وشكا حينما أحسن بالحيف .

ونحن نجد اكثر الدارسين لاغراض الشعر الجاهلى قد مروا بالشكوى مراً سريعاً ان لم نقل انهم قد أغفلوها .

ولابد أن أشير ـ قبل الخوض فى هذا الموضوع ـ الى أن الشكوى لم تكن من الاغراض الشعرية البارزة ـ كالفخر والوصف والمديح ـ بسبب رغبة العربي عنها ونفوره منها ونزوعه الى القوة يستخلص عن طريقها حقه ، فالعربى قديماً ذو أنفه وعنجهية وكبرياء لا يميل الى الشكوى المذلة والالحاف فى التظلم المهين •

والذي ذكرته ـ آنفاً ـ لا يمنع من أن نقول فيها كلمة قصيرة وأن نلقى عليها نظرة فاحصة متبينة •

ـ ٣ ـ

وأحسب أن الشكوى فى الشعر الجاهلي تبرز واضحة فى ألوان أربعة هي :

أ ـ شكوى القريب :

ان حياة الجاهليين الاجتماعية ـ كحياتنا اليوم ـ تكدرها قطيعة بعضهم للبعض الآخر وظلمه اياه وتجنيه عليه وانكماشه عنه • فلقد سادت المجتمع الجاهلي كثير من علاقات القطيعة والجفاء بين أفراده • ولذلك فقد كثرت في الشعر الجاهلي قصائد شكوى القريب لقريبه وتظلمه منه وعتابه المرّ عليه •

واذا كان ابناء القبيلة يحمى بعضهم بعضاً ويفنى فى سبيله ، فان ذلك لم يمنع من أن يتظلموا وأن يغتصب القوي منهم حق الضعيف كما حصل لطرفة بن العبد حين مات أبوه وهو صغير فأبى أعمامه أن يقسموا ماله واغتصبوه فأشار الى ذلك فى قوله(٥) :

ما تنظرون بمال وردة فيكم ... صَغُر البنون ورهطُ وردة غيّبُ
والظلم فرّق بين حيّي وائل ... بكر تساقيها المنايا تغلبُ

ولقد ضجّ الشعراء الجاهليون فى الشكوى من أقاربهم متظلمين

مرة ، وعاتبين أخرى ، ومهددين ثالثة ومتسامحين فى مرة رابعة • وقد يكون هذا القريب المشكو أخا أو ابن عم أو زوجا أو قوما أو غير ذلك •

ولعل اكثرنا يحفظ أبيات طرفة بن العبد فى معلقته المعروفة ، اذ قال شاكياً[٦] :

فمالي أراني وأبن عمي مالكاً متى أدنُ منه ينأ عني ويبعدِ
يلوم وما ادرى علام يلومني كما لامني فى الحي قرط بن أعبدِ
وأيأسني من كل خير طلبته كأنا وضعناه الى رمسِ ملحدِ
على غير شيء قلته غير أنني نشدت فلم أغفل حمولة معبدِ
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهنّدِ

ففى الابيات المتقدمة يفصح الشاعر عن ألم دفين يكابده بسبب هذا (المالك) الذى جافاه وصدّ عنه ، فهو يلومه ويظلمه فى هذا اللوم دونما سبب مبرر ، هذا حسب ، بل ان مالكا قطع رجاء طرفة فيه وأيأسه مما كان يؤمّله عنده ، ويلقى الشاعر بصيصا من نور على سبب هذا اللوم والجفاء حين يشير الى مطالبته بابل أخيه معبد مما سبب نقمة قريبه مالك عليه • ولعل بيته الاخير مثل سائر ومعنى خالد خلود ظلم الاقارب للاقارب وتنكر الاهل للاهل •

ونقرأ أبيات الحارث بن وعلة الذهلي وهو يشكو عدوان قومه وظلمهم وتحاملهم عليه ، فنشعر بحزنه العميق وألمه الدفين وشكواه المريرة ، فهو يُرمى ولكنه لا يرد على السهم الذي يصيبه بمثله ، فلا يرمي من يرمونه لانهم أولو رحمه يصيبه ما يصيبهم ويوهنه ما يوهنهم ، فان رماهم ونكل بهم يكن كالذي يشفي نفسه ويجدع أنفه • فعفا وتسامح فوقف بذلك موقف رجل مجرب حكيم ، ويتضح هذا فى قوله[٧] :

قومي هم قتلوا أميمَ أخي فاذا رميت يصيبني سهمي

فلئن عفـــوت لأعفـون جللا ولئن ســـطوت لاوهنن عظمي
ووطئتنا وطئـــاً عـــلى حنقٍ وطءَ المقيّد نابت الهـــرمِ
وتركتنا لحمـاً عـــلى وضـمٍ لو كنت تستبقى من اللحـــمِ

فهذا الذى يشكوه الحارث كان ظالماً شديد الحنق يريد سحقهم وايذاءهم كل الاذى فقد أوقع بقوم الحارث وأوجعهم كما يقطع الجزار اللحم على خشبته ثم يدعوه أخيرا الى أن يكف عن ظلمهم وأن يبقي منهم بقية .

ولا شك أن المرء يمضه الالم ويكتوى بناره حين يرى قريبا لـه يضمر له الضغينة والحقد ويسعى الى الايقاع به واذلاله ، ومع هذا فهو يتحمل ويتصبر لانه يرى بثاقب بصره وعمق تجربته أن سلم الاقارب خير من حربهم ، ولقد تناول معن بن أوس المزني هذا المعنى تناولا لطيفا مؤثرا حين قال(٨) :

وذي رحـــم قلمت أظفـار ضغنه بحلمي عنـــه وهو ليس له حلمُ
يحـــاول رغمي لا يحـاول غيره وكالموت عندى أن يحلَّ به الرغمُ
صبرت عـلى ما كـان بيني وبينـه وما تستوى حرب الاقارب والسلمُ
ويشتم عرضي في المغيَّب جاهداً وليس لـه عندى هوان ولا شـتمِ
اذا سمته وصل القرابـةِ سامني قطيعتهـا تلـك السـفاهة والاثمُ
وان أدعـه للنصف يأبَ ويعصني ويدعو لحـكم جائر غـيره الحكم
ويسعى اذا ابني ليهـــدم صالحي وليس الذي يبني كمن همه الهدم
يـودَّ لو أني معـدم ذو خصاصة واكره جهدى أن يخالطه العـدم
ويعتد غنمـاً فى الحـوادث نكبتى وما ان لـه فيها سـناء ولا غنمُ

فمعن يشكو ذا رحمه لان هذا الاخير يشتمه ويطعن فى عرضه مجافيا له صادا عنه يتمنى له الحرمان والعدم وانقلاب الزمان ، فـى وقت يقف

فيه معن موقفا حليما فيصبر على الاذى ولا يرد على الشتيمة بمثلها ولا يريد لخصمه الذلة والهوان ، بل يحاول جاهدا أن يوصل ما انقطع بينهما وأن يرأب ما تصدع .

وربما شكا بعضهم زوجه التى يغضبها كبر سنه وضعفه فتزمع فراقه وتركه وسنقرأ مثال ذلك فى أبيات لعبيد بن الابرص فيما بعد .

ولعل الامثلة المتقدمة تقوم دليلا على مدى التمزق العائلى والقبلى الذى كان يسود المجتمع الجاهلى . وتتجلى فى هذه الامثلة العاطفة المتألمة والشعور الحزين الذي يفصح عنه الشاعر حين يرى نفسه مظلوم قريبه وفى هذا اللون من الشكوى ربما امتزج الالم بالعتاب والتظلم بالوعيد والتهديد والتشكى بالفخر . ونتبين فى هذه الامثلة وغيرها ـ أخيرا ـ السماحة والايثار والرقة فى الشعور والاحساس تجاه القريب الظالم وتلك نزعة انسانية ينبغى تسجيلها بفخر للشاعر العربى الجاهلى .

ب ـ شكوى الزمان وسوء الحال :

ليس الزمان للانسان بصاحب ، فالايام دول يتعاقب فيها الفرح والترح والاقبال والادبار والرضا والسخط ، فقد نسرُّ اليوم ونسخط غدا . ولاشك فى أن سوء حال المرء يتجلى فى الناحية المعيشية أو فى ما يلقاه من أذى واذلال على يد القوى الظالم المستبد .

واذ كان الدهر كثير التقلب بالناس دائم الغدر بهم فقد كثرت شكواهم منه وذمهم له ، والشعراء من هؤلاء الناس الذين رماهم الدهر بسهامه وأصابهم بنوازله فذموه وشكوه . واول من يلقانا فى هذا المجال امرؤ القيس ، ذلك الشاعر اللاهي الذى انقطع عن ملك أبيه الى الغوانى الحسان والخمرة وحياة العبث فى الدورة الاولى من حياته . ثم يقتل أباه تعسفه ببني أسد فيستيقظ الشاعر من غفوته وينزع عنه ثوب الترف والعيش الرقيق محاولا دون جدوى أن ينتقم لابيه ، وحين تدبر عنه

الدنيا ، وتغدر به الايام ، وتنعدم أمامه سبل الظفر والانتصار ويستغيث. فلا يغاث يشكو الدهر ويتحدث بحزن عميق عن مصيره مصورا ألمه المض، وشكواه المريرة فيقول[٩] :

وقد طوّفت فى الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالاياب
أبعد الحارب الملك بن عمرو ... وبعد الخير حجر ذي القباب
أرجّي من صروف الدهر ليناً ... ولم تغفل عن الصمّ الهضاب
وأعلم أنني عما قليل ..... سأنشب فى شبا ظفر وناب
كما لاقى ابي حجر وجدى ... ولا أنسى قتيلا بالكُلاب

فالابيات المتقدمة من قصيدة تحدث فيها امرؤ القيس عن سعيه من أجل رد مجده الغابر والثأر لابيه ، وحين يثبت الشاعر من لا جدوى هذا السعي وعبث هذا التطواف ينقطع به الرجاء ويوقن بأن الموت هو مصيره كما كان مصير أبيه وجده وعمه قتيل الكلاب .

ولعدى بن زيد العبادى قصائد كثيرة شكا فيها تجنى النعمان بن المنذر عليه وظلمه اياه حين حبسه ثم قتله فى محبسه بسبب وشاية خصومه به ، وقد كان عدي قبل ذلك أخلص الرجال للنعمان واوفاهم له والآخذ بيده الى عرش الحيرة ، من ذلك قوله وهو فى السجن[١٠] .

ألا من مبلغ النعمان عني ... وقد تهدى النصيحة بالمغيب
أحظي كان سلسلة وقيداً ... وغلا والبيان لدى الطبيب
أتاك بأنني قد طال حبسي ... ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتي مقفر الا نساءً ... أرامل قد هلكن من النحيب
يبادرن الدموع على عديٍّ ... كشنٍّ خانه خرزُ الربيب
يحاذرن الوشاة على عدي ... وما اقترفوا عليه من الذنوب

فعدى يشكو للملك حبسه وقيوده وغله ونساءه الباكيات الخائفات

وهو يمزج كل هذا بعتاب رقيق مؤثر وخوف من أن يظلم دونما جريرة أو ذنب .

واذ يطول حبسه ويشتد به الالم يعود فيبعث الى النعمان مذكرا متألما فيقول(١١) :

أبلغ النعمان عني ما لكاً ... أنه قد طال حبسي وانتظاري
لو بغير الماء حلقي شرق ... كنت كالغصان بالماء اعتصاري
ليت شعري عن دخيل يفتري ... حيثما ادركَ ليلي ونهاري
قاعداً يكرب نفسي بثّها ... وحراماً كان سجني واحتصاري

وابيات عدي هذه وغيرها في الشكوى رائعة ، لانها تصور لنا بصدق احساسه بالظلم والجور فهو مكروب حزين قد غدر به من كان يؤمل عنده الخير والملاذ . والابيات بعد ذلك مزيج من الشكوى والاعتذار والعتاب الرقيق للنعمان الذى أذله وظلمه واوقع به .

وهذا رجل من بني ضبه يخرج أبناؤه السبعة يصطادون فلا يعودون ، وحين يوقن بالشر يصرخ باكيا نادبا ، ناعيا على الأيام ذاما لها ، لانها كوته بنار الحزن الطويل والفراق البعيد ، وارتشفت بلالة روحه وقضت عليه وأصابته بسهامها بعد عمر مديد رذّلته من السنينِ ثمانون ، قال الضبي(١٢) .

فمن تكُ أيامُ الزمان حميدةً ... لديه فاني قد تعرّقن أعظمي
يلغن نسيسي وارتشفن بُلالتي ... وصلينني جمر الاسى المتضرّم
أحين رماني بالثمانين منكبٌ ... من الدهر منْحٍ في فؤادي بأسهمِ
رُزئت بأعضادى الذين بأيدهم ... أنوء وأحمي حوزتيَ وأحتمي
فان لم تذبْ نفسي عليهم صبابةً ... فسوف اشوب دمعَها بعدُ بالدمِ

وفى شعر الصعاليك تتضح شكوى سوء الحال بلون جديد غير الذى

تقدم بنا • ففي شعرهم تتعالى صرخات الجوع والحاجة والفقر • ومع أن الصعاليك قد تمردوا على مجتمعهم وفقرهم فقطعوا طرق التجارة ونهبوا وسلبوا ، فان شعراءهم شكوا حاجتهم وسوء حالهم وحياة البؤس والفاقه التي يعيشونها فى صحرائهم الجافة الفقيرة • وتتوجب الاشارة هنا الى أن الشكوى فى شعر الصعاليك تمتزج بفخرهم برجولتهم وكرامتهم وأنفتهم من التذلل والاستجداء • وفى لامية العرب المنسوبة للشنفرى صرخة تكشف عن سوء الحال وألم الجوع والصبر عليه وتحمل شدته حتى تنصرف عنه النفس أو ينصرف هو عن هذه النفس ، وما هذا التحمل والتصبر الا خشية العار والمذمة التي تلحق من يبذلون ماء وجوههم من أجل المأكل والمشرب[١٣] :

أديمُ مِطال الجوع حتى أُميتَه ... واضرب عنه الذكر صفحاً فأذهلُ
واستفُّ تربَ الارض كي لايرى له ... عليَّ من الطول امروءٌ متطوِّلُ
وأطوي على الخُمص الحوايا كما انطوت ... خُيوطة ماريٍّ تُغار وتُفتلُ
وأغدوا على القوت الزهيد كما غدا ... أزلُّ تهاداه التنائفُ أطحلُ
والفُ هموم ما تزال تعوده ... عياداً كحمّى الرّبع أو هي أثقلُ
اذا وردت اصدرتُها ثم انها ... تثوب فتأتي من تحيت ومن علُ

فالشاعر اذ يصور جوعه وتصبره على شدة الجوع يقول : بانه يطوى أمعاءه على هذا الجوع حتى تشتد اشتداد خيوط (ماري) وهو رجل عُرف قديماً بفتل الخيوط • والشاعر الجائع يظل يبحث ويدور على قوت قليل كما يدور الذئب من قفرة الى اخرى • وليس هذا ما يعانيه حسب ، بل ان الهموم والآلام كانت تحالفه وتعاوده معاودة الحمى الشديدة فيردها عنه ولكنها تعاوده من جديد •

ويظهر جابر بن حُنَيٍّ التغلبى حزنه الشديد لما يعانيه قومه من الارهاق بسبب ما يفرضه عليهم ملوكهم من الضرائب الثقيلة والاتاوات الباهضة التى يجمعها جباتهم بكل قسوة وعنف اذ يتعرض من يماطل

بدفعها الى اللطم والضرب ونزع الثوب عنه • فقد كانت الاتاوات تؤخذ على كل ما يباع فى الاسواق ، هذا الى جانب ما يعانونه من شدة الحر وطاعون الابل والرعي غير المريء(١٤) :

ويوماً لدى الحشّار من يلوِ حقه يُبزبزْ ويُنزعْ ثوبُه ويُلطّمِ
وفى كل اسواق العراقِ اتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكسُ درهمِ
وقيظ العراق من أفاعٍ وغُدّةٍ ورعي اذا ما اكلؤوا مُتَوخّمِ

ويلاحظ هنا أن هذا اللون من الشكوى تتردد فيه الالفاظ التى تؤدى المعنى المطلوب خير أداء وتكشف عما فى نفس الشاعر من ألم وجزع ومكابدة مثل : صروف الدهر ، النحيب ، الدموع ، الكرب والبث ، المنايا ، مطال الجوع ، الهموم ، يلطّم ، اتاوة ومكس •

ج ـ شكوى الكِبَر :

الانسان ميّال أبدا الى القوة والشباب ، محب لايامه الماضيات الاول ، لما كان يتمتع فيها من حياة شابة وعمر زاهر ، وعضل مفتول قوى ، ولذلك نجد الشاعر العربى فى كل العصور دائم التغني بشبابه شديد التعلق بفتوته نزّاعاً الى ذلك الشباب وتلك الفتوة وهو بعد ذلك شديد الحنين الى حياته الاولى • ويتغير عند هذا الشعور حينما يحس بضعف قوته وشدة عجزه وكلال بصره ودنو أجله ونهاية أمره ، وكم من الشعراء من تمنى عودة شبابه من جديد •

ولقد شكا الشاعر الجاهلي هرمه وشيخوخته وعجزه وضعفه متحسرا على شبابه متهما الدهر فى كثير من الاحيان بالذى حلّ به •

وعمرو بن قميئة صاحب امرىء القيس الى بلاد الروم من أوائل الشعراء الجاهليين الذين شكوا كبرهم وضعفهم بعد أن شاخ وهرم وثقل عليه القيام فما كان ليقوم الا معتمدا على راحتيه أو عصاه وقد سلخ

سنينه التسعين • وهو حين يتحدث عن ضعفه وكبره يشكو الدهر لانه رماه بنوازله ومصائبه ، وهو يرى فى الشيخوخة أمرا لايمكن مدافعته أو التخلص منه لانها شيء لا يرى فيبتعد عنه أو يتجنب منه • فبنات الدهر قد رمته وأوهنت قواه وأفنته ، نتبين كل ذلك فى قوله(١٥) :

رمتني بنات الدهر من حيث لا ادري ... فكيف بمن يرمى وليس برامِ
واهلكني تأميلُ ما لست مدركاً ... وتأميل عام بعد ذاك وعامِ
اذا ما رآني الناس قالوا : ألم تكن ... جليدا حديث السن غير كهامِ
فأفنى وما أُفني من الدهر ليلة ... فلم يُغن ما افنيت سلك نظامِ
فلو أنني أُرمى بنبلٍ رأيتها ... ولكنني أُرمى بغير سهام
على الراحتين مرة وعلى العصا ... أنوء ثلاثا بعدهن قيامي
كأني وقد جاوزت تسعين حجة ... خلعت بها عني عذار لجامي

وعبيد بن الابرص يشيخ ويهرم ويتغير لونه ويعلو الشيب رأسه ، فيلاحظ فى امرأته غضبا وازوراراً وصدّاً • ويغتم ويألم لانها تريد مفارقته بعد أن كبر وأعسر وبخل مواليه بمواساته ، ثم يتلهف على ما فاته من شبابه ويتذكر سواد شعره يوم كان فتىً قوياً يظعن بأبله الناجيات ويتشوق الى ذلك العهد الذى أحبه وارتضاه ولكنه ذهب وتولى• والشاعر اذ يحاول أن يقنع نفسه بالحال التى هو فيها يدرك أن كل عيش الى زوال وذهاب فليتحمل وليتصبر ففي الصبر ملاذ واحتيال لمن يريد التأسي والنسيان(١٦) :

تلك عرسي غضبى تريد زيالي ... ألبينٍ تريد أم لدلالِ
زعمت أنني كبرتُ وانني ... قلّ مالي وضن عني الموالي
وصحا باطلي واصبحت شيخاً ... لا يواتي أمثالها أمثالي
أن رأتني تغيّر اللون مني ... وعلا الشيب مفرقي وقذالي
درّ درُّ الشباب والشعر الاسـ ... ـود والراتكات تحت الرحالِ

ذاك عيشٌ رضيتــهُ وتولــى كــل عيش مصــيره لهبــالِ
صبّر النفس عنـد كــلّ ملمٍ إنّ في الصبر حيلــة المحتـالِ

وحين نقرأ الابيات التالية للاسود بن يعفر النهشلي نشعر بما يعانيه الشاعر من الهم والغم والوجد الذى نحّل جسمه واوهنه إذ سُدت عليه الارض لكبره وضعف بصره فلم يعد يستطيع الاهتداء الى موضع يريده أو مكان يقصده فيوقن بعد هذا كله أن الموت مصيره وسبيله(١٧) :

نـام الخلي ومــا احسّ رقادي والهمُّ محتضر لــدي سـوادي
من غــير ما سقم ولـكن شفتي هــم اراه قــد أصـاب فؤادي
ومــن الحوادث لا ابالـك أنني ضُربت علـيّ الارض بالاسدادِ
لا أهتدي فيهــا لموضع تلعــةٍ بين العــراق وبين ارض مرادِ
ولقد علمت ســوى الذي نبأتني أن السبيل سبيل ذي الأعــوادِ

ولا يغيب عن الذهن قول زهير بن أبي سلمى وقد شاخ وملّ كبره وضجر من متاعب الحياة بعد أن جاوز عمره الثمانين(١٨) :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانــين حولاً لا أبا لك يسـأمِ

ولعل خير ما نختتم به الحديث فى هذا المجال بيتان رقيقان مؤثران لامرأة من بني يشكر تشكو كبرها وضعفها بعد أن غلبتها ضرتُها الجديدة، وقد كانت اليشكرية أيام قوتها وفتوتها غلاّبةً تخضع ضراتها الأُول ، قالت تخاطب ضرتها(١٩) :

أيا ويح نفسي اليوم ادركني الكبرُ فأبكي على نفسي العيشة أو أذرُ
فوالله لــو أدركت فيّ بقيّــةً للاقيتِ مالاقتْ صواحبُك الاُخرُ

واوضح أن الشاعر حين يحزن لكبره ويألم لضعفه ينتهي الى الايمان بالمصير المحتوم ويميـل الى ضرب الحكمة والعبرة والموعظة كالذى تقدم فى شعر الابرص وزهير والنهشلي .

د ـ شكوى الحبيبة :

عرف العربي الحب واكتوى بناره منذ استهواه جمال المرأة ونبض قلبه بحبها ، فهام بها وتعشقها • وكثيرون هم الشعراء الذين تحدثوا عن المرأة طويلاً مظهرين تعلقهم بها وشوقهم اليها وتلهفهم عليها • وقد أحب الشاعر الجاهلي بكل عواطفه ، وتيمه الهوى فتحدث في قصيده عن حبه وهواه وعواطفه وما يلقاه من حبيبته من الصرم والجفاء والهجر والاعراض ، وما يصنعه به دلها وجمالها من الوجد والفتنة •

وقد ازدحمت قصائد الشعراء الجاهليين بالشكوى من الحبيبة المجافية التي تصد فتهز النفس من أعماقها وتهجر فيلقى الشاعر المحب ما يلقى من هذا الهجر ، فينعكس كل ما يعانيه ويكابده في شعره • ولا أريد هنا بشكوى الحبيبة كل ما قيل في هذا الباب ، فان كثيراً منه لم يكن نابعاً عن قلب عاشق ونفس متيمة ، وانما يقوله الشاعر في أحيان كثيرة متظاهراً بالحب مقلداً غيره في بناء القصيدة ، كالذي نقرأه في كثير من مطالع القصائد القديمة التي لا يدل غزل الشاعر فيها عن حب صادق وعواطف مشبوبة مخلصة • ولن أتعرض هنا لحديث الشعراء عن وصال محبوباتهم ومواتاتهن لهم ولقائهن بهم لان ذلك مما لا يتصل بموضوعنا هذا • وانما سأقتصر الحديث على شكوى الشاعر حبيبته لصدها عنه وفراقها له ورحيلها بعيداً وما يلقاه من كل ذلك فيصرخ شاكياً باكياً مصرّحاً بما يعانيه من الوجد والحزن •

والمرقش الاكبر (عمرو بن سعد) من عشاق العرب المعروفين • إذ أحب ا بنة عمه (أسماء) وخطبها ، ولكن عمه أباها عليه ثم زوجها من غيره • فرحل في طلبها وقد شفه الوجد فقال يبكيها ويذكر آثارها :(٢٠)

هل تعرفُ الدار عفا رسمها إلاّ الأثافي ومبنىً الخيَم

أعرفهـــا داراً لأســـماء فالـ ـدّمعُ على الخدين سحٌ سجَمْ
أمست خـــلاءً بعـــد ســـكانها مقفـــرةً مـا إن بهـا من إرَمْ

وواضح ان الشاعر وقد وقف في ديار حبيبته ـ وقد اقفرت وقويت ـ صب دموعه على خديه شوقاً وحزناً لبعد حبيبته وفراقها له •

ومرة اخرى يبكي (عمرو) حبيبته البعيدة ويذرف دمعه سحاً غزيراً وقد هاج شوقه اليها فيقول :(٢١)

ما قلتَ هيّجَ عينـــه لبـكائها محســورةً باتت علىٰ إغفائِـها
فـكأنّ حبـةَ فلفـلٍ في عينـــه ما بـين مُصبَحِها الى إمسـائِها

ويذكر شاعرنا أسماء في قصيدته الميمية المعروفة فيفصح عن شـكواه وبكائه وما أصاب قلبه المتبول فيقول :(٢٢)

ديـــارُ أســـــماء التـي تبلت قلبـي ، فعيني ماؤهـــا يسجُمْ

ومن عشاق العرب المعروفين المرقش الأصغر (ربيعة بن سفيان) اذ أحب فاطمة ابنة المنذر وهام بها وشكا بعدها وفراقها فى أكثر من قصيدة(٢٣) •

ومن الشعراء المحبين فى الجاهلية قيس بن منقذ بن الحُدادية ، فانه كان يهوى امرأة تدعى (نعماً) وكنيتها أم مالك • أحبها وأحبتـه ولكن جدب أرضهم حملهم على الرحيل الى ديار بعيدة نائية فجزع قيس لذلك أشد الجزع وذكر فراقها وأنّها لم تمتّعه يوم كانت قريبة منه فقال(٢٤) :

أجِدَكَ إنْ نعمٌ نأت أنت جازعُ قـــد اقتربت لو أن ذلك نافعُ
وقـد جاورتنا فى شـهور كثيرةٍ فمـــا نوّلت واللهُ راءٍ وسـامعُ
وحسبكَ من نأيٍ ثلاثـة أشهر ومن حزنٍ أن زاد شوقك رابعُ

وقد قصّ قيس كيفية رحيل نعم قصاً بديعاً أظهر فيه فزعه من فراقها ساعة نودي بالرحيل فبكى لذلك وأذرت عيناه الدموع ووجف فؤاده وانكمش خوف الفراق والفراق ماثل أمام عينيه(٢٥) :

وما راعني الا المنادي ألا اظعنـوا وإلا الرواغي غـدوةً والقعـاقعُ
بكى من فراق الحيّ قيس بن منقذ وإذراء عيني مثلَه الدمـعَ شائعُ
كأنّ فؤادي بين شقّين من عصـا حذار وقوع البـين والبين واقعُ

وفى قصيدة اخرى شكا قيس نوى حبيبته وبعد مزارها وأشار الى غمه وهمه وما أصابه من هذا النوى وخيبة الامل فقال(٢٦) :

وبُدلتُ من جدواك يا أمّ مالكٍ طـوارق همٍّ يحتضرن وسـاديا
فلا مـدركاً حظـاً لدى أم مالك ولا مستريحاً فى الحيـاة فقاضيا
وإنّ الذي أمّلت من أمّ مالك أشـابَ قذالي واستهـام فؤاديـا
شكوتُ الى الرحمن بعدَ مزارها وما حملتني وانقطـاعَ رجائيـا
وقـد أيقنت نفسي عشيةَ فارقوا باسفل وادي الدوح أن لا تلاقيـا

فالهم وانقطاع الرجاء يعصران قلب الشاعر بعد أن تأكد له فراق حبيبته الابدي فصرخ بالشكوى المرة الى الله بعد الذى كابده من حبها فهو محب نكد الحظ لم يجد عند حبيبته ما يؤمّله المحبوب وليس هـو بالميت المستريح •

ولست هنا بالمطيل المستقصي فى هذا البحث لشكوى الحبيبة فذلك مما يمكن قراءته والاطلاع عليه فى شعر الكثيرين كبشر بن أبي خـازم والمثقب العبدي وطرفة بن العبد وغيرهم •

وأخيراً فقد نقرأ شكوى الشاعر فى ثنايا قصيدة متعددة الاغراض كما هو الحال فى شكوى طرفة والاسود بن يعفر والشنفرى ، وقد تبنى القصيدة على الشكوى واظهار الفزع والعتاب واللوم بكاملها ونقرأ ذلك فى قصائد عدي بن زيد ومعن بن اوس والمرقشين الاكبر والاصغر وقيس بن الحدادية • ولعل البناء الاخير للقصيدة متأتٍ من رغبة الشاعر فى اظهار شكواه وألمه وبثه بشكل مفصل واضـح ليكشف عن حقيقة ما يلقاه ويعانيـه من قريبه أو زمانه أو ضعفه أو حبيبه •

مصادر البحث

(١) الاغاني ١٠/١٠ ط · دار الكتب ·
(٢) البيان والتبيين ٦٣/٣ تحقيق عبدالسلام هارون ·
(٣) أمالى القالى ٢٥٦/١ ط · المكتب التجارى ـ بيروت ·
(٤) معجم الشعراء ٣٥٧ ط · البابى الحلبى ·
(٥) الشعراء والشعراء ١١٩/١ ط · دار الثقافة · وردة : اسم أم طرفة ·
(٦) ديوان ص ٣٣ وما بعدها ط · شالون ·
(٧) شرح ديوان الحماسة · ٦٤/١ـ٦٥ ط · السعادة · فى الامالى ٢٦٢/١ الجرمى بدل اهلى · الهرم : ضرب من النبات · الوضم : خشبة الجزار ·
(٨) أمالى القالى ١٠٢/٢ ·
(٩) ديوانه ٩٨ ـ ٩٩ ط · دار المعارف · شبا كل شيء حده ـ أنشب : أعلق ·
(١٠) الاغانى ١١٢/٢ · الحريب : الذى سلب ماله · الشن : القربة العتيقة ·
(١١) المصدر نفسه ١١٤/٢ · المالك : الرسالة · الاعتصار : الالتجاء ·
(١٢) أمالى القالى ٦١/١ · النسيس : بقية النفس ·
(١٣) ذيل الامالى والنوادر : ٢٠٤ ـ ٢٠٥ · المكتب التجارى ـ بيروت · الطول : الفضل والانعام · الخمص : الجوع · الازل : الذئب السريع · التنائف : الفلوات · الاطحل : الذي يضرب لونه الى اللون الرمادى · حمى الربع ، التى تتردد كل اربعة أيام ·
(١٤) المفضليات ٢١١ ط · دار المعارف · الحشار : الجابي · يبزبز : يدفع الغدة ، طاعون الابل · متوخم : غير مريء ·
(١٥) الشعر والشعراء · ٢٩٣/١ ط · دار الثقافة ·
(١٦) ديوانه ١٠٦ ـ ١٠٧ ط البابي الحلبي · الراتكات : الابل النجائب الهبال : الهلاك ·
(١٧) المفضليات ٢١٦ · ذو الاعواد : الموت ·
(١٨) شرح المعلقات المسبع للزوزنى ٨٦ ط · دار صادر ·
(١٩) جمهرة الامثال : العسكرى ٤١٧/١ ط · المؤسسة العربية الحديثة·
(٢٠) (٢١) (٢٢) (٢٣) المفضليات ص ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ·
(٢٤) (٢٥) (٢٦) الاغانى ١٤/١٥٤ـ١٥٥ـ١٥٦ـ١٥٧ـ١٥٨ـ١٥٩ـ ط · دار الكتب ·